سل بعمال المطبعة الذين لا يعرفون أن فى الأمر سراً لأنهم ون المقالات بخطى . فاقتنعت الوزارة أنى أنا الكاتب ولم تستغرب ك لأني كنت من موظفيها ومن رجال التعليم بها . وفي عدى الليالي كنت عائداً إلي البيت — وكان يومئذ فى صحراء مام — فصار كل من يلقانى هناك يقول لى: إن الشيخ (يريدون يخ الامام وهو قريبي) يطلبك فسألت عنه ، فلم أجده ، فذهبت بيتى وبت ، وفي الصباح بعث إلى الشيخ خادمه فلحقت به ال : « إركب » فركبت . وكانت له مركبة يجرها جواد أصيل سألته : « إلى أين إن شاء الله ؟ » قال « إلى وزارة المعارف » هشت وسألته : « وماذا أصنع فى وزارة المعارف ؟ » قال: « تتسلم لك » فصحت من فرط الدهشة : « عملى ؟.. ماذا تعنى ؟ » قال: جاءنى وزير المعارف أمس وأنت تعرف أنه صديقي وقال لى إنه أن المازنى قريبي وأنه يعتمد على فى اقناعك بقبول العودة إلى ظيفة كوظيفة أقرانك فى الوزارة » فأدركت أن الوزير غلط ظن أني أنا كاتب المقالات التي أقامت القيامة وقلت : « إن المسألة ها غلط . . لست كاتب المقالات » قال : « زى بعضه » قلت : هذه رشوة لا أستحقها مع الأسف » قال : « يا أخى لا تكن نونا » قلت : « مجنون . . عاقل . . كيف أستطيع أن أدخل ارة المعارف وأنا أكتب كل يوم بامضائى ضد الوزارة كلها ؟ . ى وجه ألقى الناس ؟ . . كل ذمة لها ثمن . . لا تحسب أن أحداً فع من أن يرشى . . ولكن من سوء الحظ أن هذه الرشوة رض فى الوقت الذى لا يسعنى فيه أن أقنع ضميرى بقبولها . . قد قلت لك إنى لست الكاتب كما توهمت الوزارة فأرحها وأعفها ن تكلف هذه الرشوة . »

وانتهى الأمر على هذا الوجه . وانى ليخيل لى أحيانا أنى كنت مغفلا ولكن من يدرى ؟ . . وسواء أكنت أم لم أكن أعرفنى ندمت قط على شىء مضى وفات . . ولماذا أعنى النفس اضى ولا خير في ذلك ؟ والحاضر حسبى مشغلة . والحمد لله على وفق وأعان .

ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لمصر أسطول

فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر بين الدول التى دعتها الحكومة البريطانية إلى الاشتراك فى حفلة العرض البحرى الكبرى التى أقيمت لمناسبة تتويج جلالة الملك جورج السادس ، ولكن مصر اعتذرت عن إجابة هذه الدعوة لأنها لا تملك من الوحدات البحرية اللائقة ما يصلح لاشتراكها فى مثل هذا الحفل الدولى العظيم

وبالأمس احتفلت مصر بتتويج جلالة مليكها الفاروق احتفالا رائعاً يذكرنا جلاله وروعته بمجد عصورنا الذاهبة وعظمتها ، وروعة أيامها ومناسباتها المشهودة ؛ واشترك الجيش المصري الباسل بوحداته البرية والجوية فى هذه المناسبة السعيدة اشتراكا يذكرنا بماضيه العسكرى الباهر ، ويبعث إلى الأمل فى أن يغدو سراعا كما كان فى الماضى درع البلاد وحصنها الحصين

ولكننا لم نسمع للأسف صوت الأسطول المصري ، ولم نشهد أثره فى تلك المناسبات العظيمة لأن مصر لا أسطول لها

هذه الحقيقة المؤلمة يجب أن تلفت أنظار مصر المستقلة إلى مركزها الدقيق بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وإلى ما يمكن أن تواجهه فى المستقبل من الأخطار من هذه الناحية خصوصاً فى هذا العصر الفياض بالتطورات والاحتمالات السريعة ، وفى هذه المياه التى تنذر من آن لآخر أن تضطرم بكدر الخصومات والمنافسات التى تتفاقم عواملها يوماً بعد يوم

فمصر بلد بحرى بلا ريب تمتد شواطئه إلى مسافات بعيدة على طول البحرين التاريخيين العظيمين : بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وبحر القلزم أو البحر الأحمر ؛ وقد لعب هذان البحران العظيمان منذ فجر التاريخ فى تاريخ مصر وفى مصايرها أدواراً خطيرة ؛ وسوف يلعب كلاهما بلا ريب دوره الخطير فى مستقبلها

وقد شعرت مصر دائماً بمركزها البحرى الخطير فى هذين البحرين ، فكان لها منذ أقدم العصور أساطيل حربية تجوس

خلال هذه المياه وتذود عن شواطئها ، وأساطيل تجارية تحمل تجارتها إلى أقصى ثغور العالم القديم

وكما أن لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البرية التى بلغت أحياناً قاصية الأناضول شمالاً ، وأقاصى السودان والحبشة جنوباً ، فكذلك لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البحرية ، بل إن تاريخ مصر البحرى يبدو أحياناً فى ألوان من العظمة تضارع سيرة أعظم أساطيل هذه المياه فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الأسطول المصرى طوال هذه العصور يملك ناصية شرق البحر الأبيض ، ويناهض أسطول الدولة البيزنطية ، وأسطول البنادقة أعظم أساطيل العصر ، وكانت له فى تلك المياه جولات وفتوحات عظيمة حتى أواخر القرن الخامس عشر

ومنذ القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) نرى مصر تعنى بأسطولها عناية فائقة ، وتنشئ دور الصناعة أو المصانع البحرية العظيمة لتغذى أسطولها باستمرار بمختلف الوحدات البحرية ؛ وكانت دور الصناعة بمصر والاسكندرية ودمياط أيام الفاطميين تخرج أعظم الوحدات البحرية المعروفة فى ذلك العصر . وبلغ الأسطول المصري فى أوائل عهد الدولة الفاطمية نحو ستمائة قطعة ترابط فى الاسكندرية ودمياط وعسقلان وفى البحر الأحمر . وكان للاسطول وشئونه ديوان خاص يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العائر ؛ واشتبكت مصر أيام الفاطميين مع الدولة البيزنطية فى عدة معارك بحرية شهيرة . وفى أيام الدولة الأيوبية لعب الأسطول فى المعارك الصليبية دوراً خطيراً ؛ وكانت الحراقات أو قاذفات النار المصرية عاملا حاسما فى هزيمة لويس التاسع ورده عن مصر . ومع أن الأسطول لم يحظ أيام دول السلاطين بمثل العناية التى حظى بها أيام الفاطميين ، فإنه لبث منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر عاملاً هاماً فى التوازن الدولى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط . وفى أوائل القرن الخامس عشر افتتح الأسطول المصرى جزيرة قبرص فى عهد الملك الأشرف برسباى (سنة ١٤٢٥ م) ، وغزا رودس أكثر من مرة ؛ وكان يشتمل يومئذ على نحو ستين قطعة ، وكان معظم بحارته من المتطوعين الذين يهرعون إليه كلما دعا داعى الجهاد . وما زالت مصر أيام السلاطين تحتفظ بأسطولها حتى الفتح العثمانى ، بل نرى السلطان الغورى آخر أولئك السلاطين يجدد الأسطول المصري ويعده لمحاربة البرتغاليين للمحافظة على طريق الهند القديم الذى كانت مصر حارسته وكانت تعلق عليه أهمية تجارية خاصة . وفى سنة ١٥٠٨ م أعنى قبيل الفتح العثمانى بأعوام قلائل نرى الأسطول المصرى بقيادة أمير البحر حسين يهزم الأسطول البرتغالى فى البحر الأحمر بقيادة الأميرال لورنسو الميدا ، ثم يشتبك بعد ذلك فى معارك بحرية شديدة مع أسطولى برتغالى آخر بقيادة أمير البحر الشهير البوكركي على مقربة من باب المندب

والظاهر أن مصر لبثت بعد الفتح العثمانى مدى حين تحتفظ بأسطولها ، أو على الأقل بسمعتها البحرية ، فترى التواريخ النصرانية تنوه بشجاعة البحارة السكندريين فى موقعة لبانتو البحرية الشهيرة التى نشبت بين الأسطول العثمانى بقيادة على باشا ، والأساطيل النصرانية المتحدة بقيادة الدون خوان سنة ١٥٧١ م ، واشتركت فيها إلى جانب الترك وحدة بحرية مصرية ، تنوه التواريخ النصرانية بشجاعتها وبراعتها

بل مالنا نرجع بعيداً ، وقد كان لمصر فى أوائل القرن الماضى أسطول ضخم ، وكانت من الدول البحرية التى يحسب حسابها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ؛ ففى عهد محمد على استعادت مصر صفتها القديمة كدولة بحرية ، وأستأنف الأسطول حياته فى هذه المياه بعد أن قطعت زهاء ثلاثة قرون . ومع أن الأسطول المصرى لم يبلغ عندئذ قوته القديمة ، فإنه لم يلبث أن غدا عاملا يحسب حسابه . واهتم محمد على بإنشاء الأسطول منذ بداية حكمه ، فأنشأ أسطولاً صغيراً فى البحر الأحمر ثم قرنه بإنشاء أسطول كبير فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ بالاسكندرية دار صناعة عظيمة لصنع الوحدات البحرية . ومع أن الأسطول المصرى قد نكب فى موقعة نافارين الشهيرة فى المياه اليونانية سنة ١٨٢٧ ، فان عبقرية محمد على أبت إلا أن تنشىء لمصر أسطولاً آخر أعظم وأضخم ، فلم تمض أعوام قلائل حتى كان لمصر أسطول ضخم قوامه ست وثلاثون قطعة من مختلف الوحدات ، بها الف وثمانمائة مدفع ؛ وبلغ رجاله نحو ثمانية عشر الف مقاتل ، وذلك فى سنة ١٨٤٣ أعنى لأقل من قرن مضى . وكانت معظم هذه الوحدات البحرية من صنع دار الصناعة المصرية الشهيرة ، وقليل منها اشترى من الخارج

ك لتدهش حقاً إذا علمت أن الميزانية المصرية لم تزد إيراداتها فى ، الحين على ثلاثة ملايين جنيه ، وكانت هـذه الملايين الثلاثة ية للانفاق على الجيش والأسطول ، ومختلف المرافق والمشاريع ملاحية العديدة التى اضطلع بها مصلح مصر العظيم

هذا ولسنا نتحدث هنا عن أسطول مصر التجاري ، وكيف ل طوال العصور الوسطى يأخـذ بأعظم قسط فى المواصلات حرية بين مصر وثغور البحر الأبيض المتوسط ، شرقه وغربه اله ، وكيف كان إلى جانب أساطيل البنادقة والجنويين يأخذ سط وافر فى تجارة الهند فى تلك العصور

* * *

عرضنا هذه الخلاصة التاريخية ليرى القارىء كيف كانت ر فى عصور استقلالها دولة بحرية عظيمة ، وكيف كان سطول المصرى فى تلك العصور عاملا من عوامل التوازن لاستقرار فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

والآن وقد استأنفت مصر حياتها الحرة المستقلة بعد فترة ، المحن غلت فيها إرادتها وحريتها ؛ الآن وقد عادت تحمل على هلها أعباء الاستقلال وتكاليفه ، وتعد أسباب الدفاع عن هذا ستقلال ، وتعيد تنظيم جيشها الباسل ليتبوأ مكانته التاريخية ديمة بين الجيوش الحديثة ، فانه يلوح لنا أن حديث الأسطول صري مما يناسب المقام والظروف .

وإذا كان من حسن الطالع أن تكون مصر صديقة وحليفة يطانيا العظمى أعظم الدول البحرية ؛ وإذا كانت مصر تستطيع ، حين أن تعتمد على معاونة حليفتها العظيمة فى رد اعتداء تدين عليها وخصوصاً من البحر ؛ وإذا كانت بريطانيا العظمى ى من مصلحتها الحيوية أن تعاون بأقصى ما تستطيع فى سلامة صر من كل اعتداء خارجى ، فإن ذلك كله لا يمنع مصر من أن كر فى المستقبل وأن تتطلع إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن ظم لنفسها نوعاً من الدفاع البحرى إلى جانب الدفاع البرى الدفاع الجوى .

ونقول نوعاً من الدفاع البحري لأننا لا نطمع أن تغدو مصر ولة بحرية فى المستقبل القريب ؛ وإنما نطمع فى أن يكون لمصر فى فرصة الملائمة قوة بحرية دفاعية تؤيد سيادتها فى المياه المصرية وتقوم بقسطها من الدفاع عند الطوارىء والمفاجآت ، وتكون نواة لأسطول مصر المستقبل . ذلك أن مصر باعتبارها دولة بحرية من دول البحر الأبيض لا تستطيع أن تغضى عن هذه الحقيقة إلى الأبد ، ولا مندوحة لها من أن تساير تطور الحوادث والظروف

ولمصر أسوة بدول أخرى من دول البحر الأبيض ليست أكبر منها ولا أعظم موارد ، مثل اليونان وتركيا ؛ فكلتاهما تملك قوة بحرية متواضعة ، ولكنها فى نفس الوقت تكفي لأغراض الدفاع المحلية ، وكلتاهما تعتبر من الدول البحرية فى هذه المياه

إن عصرنا الحاضر عصر التسليحات والأهبات الدفاعية ؛ والبحر الأبيض المتوسط ليس مكفول السكينة ، بل يخشى أن يكون فى المستقبل القريب مسرحا لمنافسات وخصومات ربما أصاب مصر رشاشها ؛ ومن بواعث الأسف أن تكون حقوق الأمم اليوم عرضة للانكار والانتقاص من جانب بعض الأمم التى تعتد بقوتها ؛ ففى مثل هذه الفترات المضطربة من الحياة الدولية التى يسود فيها قانون القوة ، ترتجف الأمم الضعيفة إشفاقاً على مصايرها ، وتستمد من بعض المحالفات القوية ما تعتمد عليه لدرء الخطر ، ولكن ذلك لا يعفيها من واجب الأهبة والاستعداد قدر استطاعتها ؛ وإذا كانت مصر لظروف خاصة قد تخلفت فى هذا الضمار عن غيرها من الأمم ، فان عليها أن تستكمل اليوم ما فاتها بالأمس ، لكى تستطيع مسايرة الحوادث والظروف ، ولكى تثبت قبل كل شىء أنها تحرص على استقلالها الذي نالته بعد طول كفاح

وهذه هى تكاليف الاستقلال الفادحة ؛ فان استقلال الأمم لا تكفله الحقوق الدولية إذا لم تدعمه أهبة الدفاع ؛ ومصر اليوم تبدأ فى هـذا الميدان حياة جديدة ، وتعنى بتنظيم دفاعها يحفزها إلى هذا الواجب المقدس تاريخ جيشها المجيد ؛ ولكن مصر أيضا دولة بحرية ، وقد كان لها أسطول مجيد كما كان لها جيش مجيد . فلتذكر إذن تاريخ هذا الأسطول الذى بسطنا خلاصته فى هذا الفصل ؛ وإذا كانت ظروفها الحاضرة لا تفسح لها مجالا للعمل السريع فى هذا الميدان ، فان المستقبل القريب قد يمهد لها سبيل التفكير ، وقد يمدها أيضا بالوسائل والموارد التى تعاونها على تحقيق هذا المشروع الحيوى الجليل .

محمد عبد الله عنان